

١ - مدينة الزهراء

ومبانيها الملوكية الفسيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا منذ حين في بعض الأنباء الخارجية أن بعض الهيئات الأثرية في إسبانيا تمنى بالبحث لاكتشاف معالم مدينة الزهراء الأندلسية ، وأنها قد وفقت بالفعل إلى اكتشاف بعض أسس قديمة في ضاحية قرطبة يظن أنها من أسس قصر الزهراء ؛ وجدير بمثل هذا النبأ أن يثير شجناً في نفس أولئك الذين يستعرضون تاريخ الأندلس ، وتاريخ قاعدتها الملوكية الشهيرة التي غاضت من صفحة الوجود حتى لم يبق من أطلالها اليوم ما يدل على مواقعها ومعالمها

كانت الزهراء من أعظم القواعد الملوكية التي عرفها التاريخ ، ولكنها لم تتمر طويلاً ولم تقم في تاريخ الأندلس بدور ذي شأن ، ولم يزلها سوى مؤسسها الناصر وولده الحكم وابنه المؤيد ، ولم تتمر كقاعدة ملوكية أكثر من نصف قرن ؛ ومن غرائب القدر أنه في الوقت الذي أكلت فيه الزهراء في عهد الحكم المستنصر ، وضمت أسس قاعدة ملوكية إسلامية جديدة قدر لها أن تؤدي في تاريخ الإسلام وتاريخ الحضارة الإسلامية أعظم دور ؛ تلك هي القاهرة الممزية التي أخذت تتفتح عظمها وبهاؤها في نفس الوقت الذي ذوت فيه عظمة الزهراء وعصفت بها حوادث الدهر ؛ ولم تكن الزهراء أول قاعدة ملوكية في الأندلس ، ولم تكن القاهرة أول قاعدة ملوكية إسلامية في الشرق أو في مصر ، فمن قبل أنشأ هشام بن عبد الملك رصافة الشام لتكون منزلاً ملوكياً لبني أمية ، وأنشأ المعتصم سامراً لتكون منزلاً له ولعقبه من بني العباس ، وأنشأ ابن طولون مدينة القطائع بمصر لتكون له ولعقبه قاعدة ملوكية إلى جانب القسطنطين عاصمة مصر الإسلامية ؛ وفي الأندلس أنشأ عبد الرحمن بن معاوية مؤسس ملك بني أمية بالأندلس ضاحية ملوكية في قرطبة سماها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام ؛ وسطمت كل من هذه القواعد

الأحوال الخارقة ، وبهذا يطل على الأرض لبعض الروحانيين وتطل خوارق كثيرة مما يحدث في استحضر الأرواح لهذا العهد ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان يصنعه « لاهوديني » الأمريكي إذ كانوا يثقلونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛ ويعبدونه في السجون المحصنة يقوم عليها الحراس وتحمك فيها الأبواب والجدران ، ثم يجدونه في بعض الفنادق

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه فان تركيب الطبيعة رد عليه ، وتقصه هو رد على نفسه ، والمستحيل على الأعمى هو أبصر الممكنات على البصر فأنت ترى أن ذكر البراق والملك في أساس قصة الاسراء والمراج هو صلة القصة بالمعجزة وهو عينه ملتها بالبرهان العلمي ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرق وينكشف ويستضيء كلها بالانسان بروحه ، وينلظ ويتكاثف وينحجب كلها نزل بها ، وهي من ناحية النبي صلى الله عليه وسلم قصة تصفه بمظهره الكوني في عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه ، هي كالدرس في أن يكون قلب المؤمن معراجاً ساموياً فوق هذه الدنيا ليشهد ببصيرته أنوار الحق ، وجمال الخير ، وتجدد الأعمال الإنسانية في صورها الخالدة ؛ فيكون بتدبره القصة كأعما يصعد إلى السماء وينزل ؛ فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة فيدفع عن نفسه بذلك وتعتقد الأخيلة الذي هو أساس البلاء على الروح ومتى استنار القلب كان حياً في صاحبه وكان حياً في الوجود كله . ومتى سلت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الانسان وبين الله إلا حياة هي الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياة هي الرحمة والحب ما

(ملطاً)

منه في الرسالة

إلى خ . خ . د . د . من أجلك وصفت حي أنا في مذلات (الجمال الياس) وفي السنة الماضية كتبت مقالة (ممر الحب) وهي في الرسالة فارجم إليها ؛ ثم إن تعرض لك إبليس بعد أن تكون قرأت هذه الفلوات وتدرتها فاشكك إلى أنفك منه على شرط أن تفكر إلى البوليس تلك المرأة التي يظهر لك وجهها كما يؤخذ من كتابك

الرائي

والسلطان المؤنل ، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك آيات قالها في هذا المعنى :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من جدم نبالن البنيان
أو ماري الهرمين قد بقيا وكم ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تماظم شأنه أنحى يدل على عظيم الشأن
وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة

على قيد أربعة أميال أو خمسة منها في سفح جبل يسمى جبل
المروس^(١) ؛ وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس
وعشرين وثلثمائة (نوفبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر إلى ولده
وولي عهده الحكم بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة^(٢) ،
وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ،
ولا سيما من بغداد وقسطنطينية^(٣) ، وجلب إليها أصناف الرخام
الأبيض والأخضر والوردي من الرية وريه ، ومن قرطاجنة
افريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية^(٤) ؛ وكان يشتغل في
بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب
ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف
صخرة في اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار
كل عام طوال عهد الناصر أعني مدى خمسة وعشرين عاماً ،
هذا عدا ما أنفق عليها في عهد الحكم^(٥) وابنتي الناصر في
حاضرنه الجديدة قصرًا منيف القدي ، لم يدخر وسكًا في تنمية
وزخرفته حتى غدا تحفة رائدة من الفخامة والجلال ، تحف به
رياض وجنان ساحرة ؛ وأنشأ فيه مجلسًا ملكيًا جليلًا يسمى بقصر
الخلافة صنعت جدرانها من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب
من جوانبه ثمانية أبواب قد انمقتت على حنايا من العاج والآبنوس
المرسع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتمائيل والصور
البديعة وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس
إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة^(٦) ؛

(١) نزعة الشناق للادريسي (طبع روم) ص ١٩٣ — والسالك
والملك لابن حوقل (ص ٧٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطش
(٢) البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٣٤٧ — فتح الطيب ج ١
ص ٣٦٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٦

(٥) فتح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٦) فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧

الملوكية الاسلامية حينًا من الدهر ، ولكنها اختفت جميعًا من
صفحة الوجود ، إلا القاهرة فانها استعالت إلى عاصمة الاسلام
في مصر ، وما زالت تقطع الأحقاب قوية راسخة ، تحمل حتى
اليوم عمرها الألقى أعظم ما تكون الحواضر العظيمة والمدن
العراء ضخامة ونفامة وبهاء

كان عصر عبد الرحمن الناصر أعظم عصور الاسلام في
الأندلس ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، قد بلغت يومئذ
أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد ، منافستها في
الشرق ، بهاء ونفامة ؛ ولكن قرطبة كانت بمأهدها ودورها
وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك
عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية والقصور
والرياض الشاسعة ؛ بل كانت تضيق بهذه الأبنية الملوكية منذ
عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة في ظهرها لتكون
له منزلًا ومنزلها ملكيًا . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائمًا
سنة المروش القوية المتأخرة ؛ فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد
من توطيد ملكه وسحق أعدائه في الداخل والخارج ، عني بأن
يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى في أن يقيم بمحور
قرطبة ضاحية ملكية رائدة ، فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولأنشاء
الزهراء قصة ، ودرعا كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط
بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر
رأى حلمًا كالذي رآه قسطنطين فأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ،
ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية
الملوكية هي جاريته وحظيته « الزهراء » ؛ وأنه ورث من
إحدى جواريه مالا كثيرا فأمر أن يخصص لاقتداء الأسارى
المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفندى ، فأوحى
إليه « الزهراء » بأن ينشئ بهذا المال مدينة تسمى باسمها
وتخصص لسكانها^(١) . بيد أن أفضل أن ترجع مشروع الناصر
إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض نفامة الملك والترفع
بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة

والظاهر أبعداً أن شغفاً خاصاً بالمهارة والبناء كان يحفز
الناصر ويذكره في إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت
المنشآت والمياكل العظيمة على كرم المصور مظهر الملك الباذخ

(١) فتح الطيب للقرى (مصر) ج ١ ص ٢٤٥

وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء وهو الجناح الشرق المعروف بالمؤنس ، بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير الذي أهدى إليه من قيصر قسطنطينية ، وأقام عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المصع بالجوهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها إلى الحوض^(١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسجورة عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يكن في أم الإسلام مثله في الروعة والاناقة والبهاء^(٢)

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً ، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بممد وقياب نخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال^(٣) ، وأنشئت بها محلات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ومسارح للطير مظلة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلي^(٤) ؛ والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة تجمع بين نخمة الملك الباذخ وصرلة السلطان المؤتمل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية

وفي إقامة هذه المنشآت الباذخة وبذل هذه النفقات العاتلة ما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذي بلغت الدولة الأموية بالأندلس من القوة والصفامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا في ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت لعهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف (أعني خمسة آلاف مليون) وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والاستخلاص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ؛ هذا عدا أخماس الغنائم العظيمة التي لا تحصى ؛ وقيل لنا إن الناصر خاف وقت وفاته في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار ؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث ، ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ،

(١) فتح العبيد ج ١ ص ٢٦٦

(٢) » » ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥

(٣) » » ج ١ ص ٢٦٤

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

وثلث يدخر للطوارئ^(٥) ، ولم يتردد المؤرخ الحديث في قبول هذه الأرقام حتى أن دوزي ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب^(٦) ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادي الذي زار قرطبة والزهراء في ذلك العصر إن الناصر وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة هم أغنى ملوك العالم في ذلك العصر^(٧) ؛ وهذه أرقام وروايات تشهد بصفامة الدولة الأموية وطائل غناها وبذخها في عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته الكثيرة أن يضطلع بأعباء هذه المنشآت العظيمة الباهرة ؟

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر أعني حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة ؛ واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ؛ واستغرق بذلك من عهد الخليفين زهاء أربعين سنة^(٨) . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة ، مذ تم بناء القصر والمسجد ؛ وقد كان ذلك فيما يظهر في سنة تسع وعشرين وثلثمائة في شمان من هذا العام تم بناء المسجد ، وأقيمت به أول جمعة رسمية ؛ وكان الناصر قبل ذلك بنحو عامين قد اتخذ سمة الخلافة وتسمى بألقابها (سنة ٣٢٧ هـ) ، فكانت الزهراء بذلك أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس

محمد عبد الله عثمان

البحث بنية

(القول مجموع)

(١) فتح الطب ج ١ ص ١٧٧ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧

(٢) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne II p. 173

(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٧

(٤) فتح الطب ج ١ ص ٢٦٤

